ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 28 مارس 2023

الباحـث الـنـاقـد

عبد الكبير الخطيبي
ترجمة: **مراد الخطيبي**

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

All rights reserved © 2023
جميع الحقوق محفوظة © 2023

الباحث الناقد[1]

عبد الكبير الخطيبي
ترجمة: **مراد الخطيبي**

1 محاضرة ألقاها الدكتور عبد الكبير الخطيبي بكلية الحقوق بالرباط بتاريخ 25 نونبر 1981 حول الأستاذ محمد لحبابي إبان اعتقاله. وصدرت ضمن الكتاب التالي:

Khatibi, Abdelkébir. (2002). Le Chercheur Critique. In Said NEJJAR (Ed.), Chemins de Traverse: Essais de Sociologie (pp. 319-328). Rabat: Editions Okad.

ملخص:

المقال هو في الأصل محاضرة ألقاها المفكر والأديب عبد الكبير الخطيبي بكلية الحقوق بالرباط بتاريخ 25 نونبر 1981 تكريما للبروفسور محمد لحبابي الذي كان رهن اعتقال حينذاك. وتمحورت المحاضرة حول تصور عبد الكبير الخطيبي للنقد بشكل عام ورؤيته الدقيقة حول مفهوم الباحث الناقد. هذا المفهوم يتطلب عدة شروط لتحققه كما أنه يتمدد ضمن أرضيات ومجالات معرفية عديدة.

محاضرة عبد الكبير الخطيبي

هذه المداخلة أعتبرها مساهمة غير مباشرة في دراسات وأعمال ذاك الذي أعتبره هنا «الغائب»، هو نفسه الذي كنت أقدر فيه دائما النزاهة الفكرية واستقامة الطبع.

سوف تكون مداخلتي حول المثقف، أو بالأحرى حول الباحث باعتباره موضوعا، برهانا في تقاطع مع مفهوم آخر هو التسامح.

سيكون حديثي بين النقد والتسامح، لنقل بين حقيقة المعرفة والأخلاق؛ بمعنى بالنسبة إلينا، أدبيات كل عبارة، كل فكر حر، الذي يغامر بحريته، باعتبارها إلى حد ما قابلة للكبح.

بداية، مشكل معجمي، كلمة «ناقد» قبل الذهاب بعيداً. يحتوي هذا المفهوم كما نعلم جميعا على فكرة ظلت دائما مهملة، وهي الوضع في مأزق (أزمة). النقد باعتباره وضعا في مأزق، مأزق سواء بالنسبة إليه وسواء أيضا بالنسبة إلى الموضوع الذي يتناوله.

بهذا المعنى، فهو دائما مزدوج، سواء كان مرجعنا في النقد هو التصور الكانطي، الهيجلي أو الماركسي، فعليه أن يتأسس، أن يضع أسسه مع تفعيلها (ولكن ليس بأي طريقة) داخل عنصر تكوينه، خطابه، منطقه، ابستمولوجيته وكل جهازه الاستراتيجي في نظام المعرفة الذي يعده، وفي إطار الوضعية المادية التي تحدده تاريخيا.

يبدأ النقد انطلاقا من أسسه؛ هذه الأسس لا يجدها النقد فقط داخل نظام المعرفة الذي يسبقه، بل أيضا داخل نظام الواقع، الذي يحصل كل واحد منا على تجربة منه؛ واقع شرس. بهذا المعنى كذلك، فالنقد مزدوج: نقد قانونه الذاتي والقانونسسأسسامم المجتمعي.

نبدأ؟ ننتهي؟ تلك هي الكلمات المعتادة التي تبدو بسيطة عند التفوه بها. ولكن فلنكن ولو للحظة يقظين حيال أماكن البدايات والنهايات والغايات.

سأبدأ بالحديث عن المكان. عن الطوبوغرافيا، وهذا ليس صدفة بالمرة. عندما يكون النقد مفكرا فيه، فهو هندسة للعقل. سأوضح، ربما تعتبر صورة الدائرة الإغواء الأكثر استمرارا للفكرة، طالما أنها تعود إلى نفسها باستمرار، فإنها تتحول في حد ذاتها كبداية لها وكنهاية لها. الدائرية: بداية لانهائية حول أسسها، حول دستورها الأولي.

للذهاب بسرعة، سأميز، في هندسة العقل هاته، بين ثلاث حركات حاسمة:

- النقد الدائري

- النقد المستقيم

- النقد الدقيق

ثلاثة أشكال مرتبطة إذن بالهندسة، حيث يكون فكر العقل- في نماذجه الأساسية- صورة طوبوغرافية للعقل.

الأول (النقد الدائري) يقول الشيء نفسه، من خلال التطور الذي، عند الكشف عن ذاته، يعيد تتبع خطواته دائمًا، في إعادة التشغيل هذا ، فإنه يرغب في الوقت نفسه توحيد المكان والزمان، عالمه الأصلي والعالم المحيط (الطبيعة، التاريخ، المجتمع) به في بيئة نقية من ذات إلى ذات، ولكن من خلال الاختلاف الدائري. إن تباين الثابت هو الذي يطارد كل فكر دائري، سواء في شكل نظام (النظام الهيجلي مثلا) أو في شكل العودة الأبدية للذات (عند نيتشه مثلا) أو الفكرة المذهلة للدائرة، التي تصبح فكرة مجنونة، تستمر في تجربتها بتدمير ذاتها، بالتفكير من خلال اللا مفكر فيه، سواء في أي شكل، شكل الدائرة، الدوران، من البداية اللانهائية والنهاية التي أعيد تشغيلها بلا حدود، يظل هذا الشكل، كما قلت، الإغراء الرئيس للفكر، وبالتالي للنقد.

النقد المستقيم (نسمي هذا الخط: تقدم، تطور، استمرارية، تنمية، وفي المجالات التي نريدها: تاريخية، اقتصادية، ثقافية)، يتشكل هذا النقد على أنه أمر له بالتأكيد، بداية، ولكن نهايته مؤجلة دائما، منفصلة عن ذاتها. النهاية التي لا تنتهي أبدا. ولكن لا تعود أبدا إلى البداية، نهاية لم تنقسم إلى نفسها فحسب، بل انفصلت أيضا عن البداية وانفصلت عن كل البدايات.

إنه هذا الانفصال بين النهاية والبداية الذي يحدد ويشكل عمل الاختلاف الذي يقدمه النقد المستقيم.

النقد الدقيق هو بداية مجردة، لا يعتبر أفقه نتيجة لنهاية أو غاية: ولكن فيما يتعلق بـ «نقطة» هجومه، قوته الضاربة، تدقيق مكانه المأخوذ بصفة مطلقة من منبعه ومن مكان تماسكه وحديثه. إنه يبدأ من دون نهاية، إذا جاز التعبير.

من البديهي أن هذا رسم تخطيطي معين لهندسة للعقل. ولكن يمكن لكل باحث، في الواقع، أن يجدها بدقة في الدراسات المنجزة في المغرب. لا أجد الوقت لتوضيح الأمر، أي توضيح كل حقل معرفي على حدة. ولكنني سأعطي أمثلة أثناء حديثي.

إذن، لم أبدأ بالحديث عن المغرب، بمعنى عن النقد الذي يستعمل فيه، ولكنني سأعود إلى المغرب كأنه أرض ثانية، علما أن الأرض الثانية تتعلق بالفكر. المغرب، باعتباره فكرا لا يمنح كهدية للولادة وللهوية الأولى أي هوية الأرض، لعلم الأنساب، للاسم الشخصي وللوطن.

يواجه المثقف الناقد على الفور مسألة بدايته، أو بالأحرى بداياته. أين يبدأ، أين ينتهي هو أيضا في الفكر الذي يعتبره وفي المجتمع الذي يدمجه مع تسامح أكثر أو أقل؟ ماهي أماكن الحرية والتسييج والانغلاق؟ الانغلاق في معانيه المتعددة: الانغلاق الذاتي، الانغلاق من طرف القانون المجتمعي، الانغلاق بسبب العنف، انغلاق بسبب نظام رقابة وبطش: في الجسد وفي العقل. لسنا منغلقين، حيث نفكر ولكن حيث نعتقد ذلك؛ لأن الفكر دائما ما يجد نفسه أمام شروط وأخطار تهدد حريته. وعليه ترتيب الاستراتيجية وتجريب حظه، ولكنه حظ لا يمنح إلا بعد عمل شاق.

إذا كنت أنا باحثا ناقدا (و»أنا» تشير هنا إلى أي موضوع)، إذا كنت باحثا ناقدا مغربيا، أين يمكنني أن أستهل بحثي؟ أجد أمامي، على الأقل، تراثا ثلاثيا، تراث «البلد»، تراث عربي وإسلامي ثم تراث عالمي يعتبر ما يسمى بالغرب أهم عنصر فيه. حسنا، هذه ملاحظة واضحة، سواء أحببت ذلك أم لا، فإن هذا التراث الثلاثي يشكل وجودي، ويؤسس قدرتي على التفكير. على سبيل المثال، إذا كنت باحثًا تقليديًا أو لاهوتيًا، فسوف أبدأ وأختتم علم اللاهوت، في دائرة حيث يلزمني، كمؤمن أن أكرر، أن أضيف تعليقا، وأن أقوم بتفسير هذه الإشكالية أو تلك في غايتها الإلهية. إذا كنت صوفيًا، فإن فنائي كموضوع يُنظر إليه على أنه انحلال لحبي لله. لكن في هذه الحالة، لا أقوم بعمل نقدي. أنا أقوم بالتكرار، وبالدوران، وكما يقول القرآن، في دورة الموت المزدوج والحياة المزدوجة.

الآن، إذا انخرطت في حقيقة المعرفة، وحقيقة العلم واستقلاليته عن اللاهوت، فأنا في نفس الوقت أواجه أسس الفكر الذي أتولى مسؤوليته، وعلى الأقل بدايته ونهايته التي يجب أن أدقق حدودها. وبالتالي (هذا مثال من بين أمثلة أخرى)، إذا كنت مؤرخا ناقدا، أرى بأن المغرب - باعتباره مفهوما تاريخيا- عبارة عن تشكيل شاسع، التصنيف الطبقي لهوية متعددة، التي تغرق في زمن سحيق والتي تضعني اليوم، بعد سلسلة من التحولات، في مسألة المغرب الحالي، غير مفهومة بشكل أقل دون تحليل العولمة الذي يعبره من كلا الجانبين. أنا هنا خارج هوية منغلقة على نفسها، من الذات إلى الذات.

ثم يبدأ الاختبار المتعلق بالفكر، حيث أضع مفهوم التاريخ، خارج أي علم للآخرة، وخارج أي غاية ثيولوجية؛ هناك، أجد نفسي مضطرا إلى فهم بداية الحرية والنقد. النقد الذي يكون دائمًا إيجابيًا وسلبيًا في نفس الوقت؛ تأسيسيا وغير تأسيسي. إنه يشكل منطقه من خلال إلغاء التأسيس، من خلال تجاوز القصور الذاتي لما يسبقه. أخذت هذا المثال للتاريخ، بيد أن مسألة البداية والنهاية هذه ترتبط بجميع مجالات المعرفة.

يرتبط أيضًا السؤال الكبير بمجتمعي؛ أي علاقتنا الأخلاقية بالبناء (الاجتماعي والاقتصادي والثقافي) الذي يجود به مثل هذا المجتمع للتحليل والتحول. الأخلاق، يجب القول، الأخلاق من التسامح، بصفة خاصة.

تسامح؟ يمكننا قياس قوة المجتمع من خلال قدرته على النقد الذاتي، وبالتالي قبول الأفراد والجماعات، الذين يجعلون هذه الوظيفة النقدية والنقد-ذاتية هي مهمتهم. وبما أن جميع المجتمعات غير متسامحة إلى حد ما مع هذا الحظر أو ذاك، فهي تفرض رقابة إلى حد ما على شخص آخر، يتم وضع هذا الفرد أو هذه المجموعة الحرجة في مطلب مزدوج، صرامة مزدوجة: المجتمع الذي هم جزء منه وذاك الفكر وحريته.

تناقض لا يمكن التغلب عليه؟ نعم ولا. نعم، على اعتبار أن النقد- عندما يفكر في الواقع- لا يخضع إلا لعنصره اللامتناهي. برفعها لبعض محظوراتها الداخلية، فإنها تنغمس في تجربة لا ترى نهايتها أبدا. بالقيام بذلك، فإنها غير قابلة للاختزال بموجب القانون المجتمعي.

لا، بقدر ما يسمح المجتمع (يتسامح)، يسمح لنفسه ويتسامح مع وظيفتي التفكير والنقد. وبفعل ذلك، عندما يقبل مثل هذا المجتمع أن يكون مادة وموضوعا للتحليل والتقييمات والتحولات.

هذا هو السبب الذي يجعل مسألة التسامح متأرجحة. لكي يؤدي المجتمع وظيفته، لكي يكون قادرًا على العمل كنظام مثالي للتوازن، كقوة إلزام، يحتاج إلى الآخر، الممنوع، المكبوت، الخاضع للرقابة. إنه يحتاج، بطريقة ما، إلى التمتع بكل من قوته وعجزه، ضمن الحدود بينهما، ضمن هذا الهامش حيث يكون المجتمع متسامحًا إلى حد ما.

تتطلب كل فترة في تاريخ (المجتمع) استجابة نقدية معينة. لكي يكون هذا النقد فعالاً، يتطلب معرفة دقيقة بما ينظم هذا المجتمع - وما يزعجه بنفس القدر - فإنه يتطلب استراتيجية معدلة، والتي قد يصبح التناقض الذي أتحدث عنه من خلالها في صالح ليس الجمود، ولكن التحول والتغيير. استراتيجية أساسية في أي خطاب معرفي؛ لأن الكلمة (الكلمة والكتابة) لها قوة رمزية لدرجة أنه من الضروري دائمًا قياس كل الاحتمالات النقدية للفكر.

ربما سأفاجئكم، لكنني أعتقد أنه يجب فضح الاستراتيجية تمامًا، وتقديمها على هذا النحو ومن دون أسرار. لماذا؟ لأنه من خلال العمل بهذه الطريقة، تكون هذه الاستراتيجية منيعة. فمن ناحية، يجب أن تحقق ما يريده قانون المجتمع ويطالب به، ومن ناحية أخرى، وفي نفس الوقت، أن تحقيق ذلك من خلال تجاوزه.

ذراع التحكم هذا حاسم. تقيس هذه الاستراتيجية التسامح، ودرجة التسامح التي يجب على الباحث التعامل معها، وتحقيقا كما قلت - التناقض لحسابه الخاص وعلى مسؤوليته الخاصة. بهذا المعنى، لم يعد

التسامح مجرد نظام أخلاقي، بل مقياسا للعنف الفعال الذي يثير أي مجتمع. ولكل مجتمع، على الرغم من منظميه، فترات من عدم التناسق والارتباك والاضطرابات الرهيبة إلى حد ما.

إنه يستمع إلى مثل هذا الخلل المتأصل في أي قانون مجتمعي، حيث يتم توجيه النقد، إن لم يكن يميل إلى فقدان عقله بطريقة ما. إذا لم يحتفظ الفكر بذهنه، عندما يرتجف المجتمع، وإذا لم يكن قادرًا في نفس الوقت على فهم المعنى الحاسم لهذه الهزة، فإن هذا النقد يخاطر بوقوع أزمة من أجل لا شيء. هذا هو السبب في أن النقد، كاستراتيجية، يمكن أن يشغل:

1- الأماكن (الثقافية، الأيديولوجية ...) التي يتغاضى عنها المجتمع حقًا؛

2- الأماكن التي يسمح فيها التناقض بأن يكون لصالحه.

3- الأماكن، حيث تصبح غير مفهومة بالنسبة إلى قانون المجتمع، فإنه [النقد] يبرز من خلال هذا القانون من أجل الاستعداد للمستقبل.

هذه الكلمات هي تكريم للغائب.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023